

**الخطط البابوية تجاه مصر والمشرق العربي في القرن
الرابع عشر حسب ما جاء في كتاب
الأسرار لمارينو سانوتو**

الدكتور: ابراهيم محمود زعرور

الخطط البابوية تجاه مصر والمشرق العربي في القرن الرابع عشر حسب ما جاء في كتاب الأسرار لمارينو سانوتو

الدكتور: ابراهيم محمود زعرور

أحدث تحرير عكا سنة ١٢٩١م. أثرا هانلا شمل الغرب الأوروبي كله^(١). وهنا شسوع رجال الكنيسة ورجال السياسة والحكم. ورجال الفكر والقلم. كل بدوره وحسب موقعه يعمل في سبيل الإعداد لمشروع حملة صليبية جديدة تتوفر لها سبل النجاح، وتوفرت هناك قناعة شاملة أن الطريق إلى فلسطين يمر الآن عبر مصر، وهذه القنوات كانت قد تأسست بالفعل منذ أحدث الحملة الثالثة، ومعروف أنه جسرت عدة محاولات لاحتلال مصر جبهويا، وكلها باءت بالإخفاق. ولهذا وجد من اقترح الهجوم على مصر جانبا، وهذا ما حاوله لويس التاسع لدى نزوله القائل له. على الساحل التونسي، رراجع الأوروبيون خططهم أكثر من مرة وسعوا إلى الاستفادة من دروس ما وقع خلال قرنين من الزمن. وكان "المحامي الفرنسي بيير دوبوا" قد أوضح في مؤلفه "كتاب الاسترداد" عن مشروع أوسع وأكبر من استرداد الأرض المقدسة، مشروعا قصد بالفعل إقامة دول كاثوليكية ليس في أوروبا الشرقية، بل المشرق العربي كله مع

تونس والمغرب، وأن ترتبط هذه الدول كلها مع باريس مقر المملكة الفرنسية، وأراد دوبا، تحويل البابوية من روما إلى فرنسا لتكون حكراً على الفرنسيين.

وندع دوبا ومشروعه الاستعماري الهائل لنتحول نحو إيطالية، ففي إيطالية عاصر كاتب من رعايا البندقية اسمه: مارينو سانوتو Marino Sanuto، واشتهر بلقب تورسيللو Torsello، كتب بعد تحفيزات استمرت سنوات طوال كتاباً اسمه "كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة" قدمه مارينو في سنة ١٣٢١ إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين (ويذكر أحياناً باسم الثاني والعشرين)...

ولد سانوتو [١٢٧٠ - ١٣٤٣م]، في مدينة ريفولتي Rivoolti من أعمال جمهورية البندقية في منطقة سينت سيفرو Seivero، وكان والده من وجهاء البندقية وعضواً في مجلس شيوخها، وقد شغل أدواراً هامة في حياة البندقية وشؤونها البحرية^(٢).

ونشأ سانوتو نشأة دينية، وغالباً ما مارس العزف في الكنيسة على آلة موسيقية جديدة، ألمانية المنشأ، عُرفت باسم تورسيللو Torsello ولاختصاصه بالعزف على هذه الآلة بات يُعرف بلقب تورسيللو.

وتقلد سانوتو عدة مناصب، من ذلك أن عُيِّن مستشاراً في محكمة بلرم. ثم في البندقية نفسها، وبحكم الأجواء التي عاشها شارك بالاهتمام بالحروب الصليبية وبأوضاع المشرق العربي والأرض المقدسة وسوى ذلك، وازداد هذا الاهتمام منذ سنة ١٣٠٧م، أيام البابا كليمنت الخامس، وإلى هذا البابا قدم مذكرة حول أفكاره وما يراه من مشاريع وكان ذلك سنة ١٣٠٩م، ومعروف أن هذا البابا عُذَّ فرنسياً، وفي فرنسا عاش، وكان قد وصل إلى البابوية سنة ١٣٠٥م، أي أن سانوتو تحرك بمشروعه بعد بيبير دوبا بوقت قصير، وعلى هذا فقد عبّر مع دوبا عن تيارات جيلهما، ولا بد هنا

من افتراض وجود مؤثرات متبادلة غير مباشرة بين الرجلين وأنهما نهلا من روح العصر وعاشا طبيعته وتأثرا بكل ما فيه.

وكان ملك فرنسا آنذاك -فيليب الجميل- حفيد القديس لويس، وصحيح أن هذا الملك لم يعرف جده، ولكنه حاول أن يتلبس شخصيته، ولا سيما في المجال الديني والمشاعر الصليبية، وقد وصفه نوغاريت، الذي كان المستشار الرئيسي لفيليب، من عام ١٣٠٣م حتى ١٣١٣م، وصفاً يذكرنا بأوصاف جوانفيل للقديس لويس، وكان جوانفيل قد كتب كتابه أيضاً في هذه الآونة، وكان فيليب الجميل في الثالثة من عمره عندما توفي جده، وقد تسلم العرش سنة ١٢٨٥م، وهو في السابعة عشرة من عمره^(٣)، وحين تسلم الحكم كانت المملكة الفرنسية مثقلة بالديون، وتحتاج إلى أكثر من ثلاثمائة سنة لوفاء ما عليها، لهذا عمد إلى إنقاص عيار العملة، وإلى فرض ضرائب ثقيلة على البرجوازية في مملكته، وإلى محاولة مصادرة الممتلكات الكنسية وقام بتصفيصة طائفة الداوية واستولى على ثرواتها، وفعل ذلك وهو يتذكر كيف تمنع الداوية عن مساعدة جده في دفع المتوجب عليه من فدية بعد فكاك أسره من المنصورة، وأدت أعمال فيليب هذه، وصراعاته مع إدوارد الأول ملك إنكلترا ونشاطاته الأخرى في سبيل الاستقلال الدنيوي إلى الصراع مع البابا بونيفيس الثامن، وإلى تبادل التهم والرسائل القاسية، لا بل إلى محاولة اعتقال هذا البابا في سنة ١٣٠٣م، في أناني، وكتب فيليب في إحدى المرات إلى بونيفيس يقول: "من فيليب، بفضل الرب ملك فرنسا، إلى بونيفيس العلمل بمثابة حبر أعظم، قليلاً من الصحة أتمنى لكم، أو لا شيء، لتكون حماقتكم العظمى معروفة واعلموا أننا في المسائل الدنيوية لا نخضع لأحد أبداً".

وقام البابا بونيفيس بحرمان الملك الفرنسي كنسياً، وقد جرت صراعات بين البابا و الملك دفع بنوغاريت ودوبوا للتشدد في ضرورة الإصلاح الكنسي الشامل، وأن هذا شرط أساسي لاسترداد الأرض المقدسة...

ولا شك أن سانوتو الإيطالي الذي عمل في الكنيسة قد عاش هذه الأجواء، وتأثر بها، ولكن ذلك لم يثبط من عزيمته، على أساس أن الدعوة الصليبية كفيلة بإحداث التغيرات الداخلية الشاملة في العالم الكاثوليكي، وفي سبيل مشروعه ارتحل سانوتو إلى بلدان المشرق، فزار بلاد الشام والاسكندرية، ويحتمل أنه زار أيضاً تونس ثم منطقة القبائل في الجزائر الحالية، وعرف الأراضي البيزنطية واهتم كثيراً بدولة أرمينية في كليكية الشامية، وأثارت حملات السلطان الظاهر بيبرس وغيرها...

واكتمل مشروع كتابه سنة ١٣٢١م، حيث قدمه إلى البابا، فشكل البابا لجنة لفحص هذا الكتاب وبعد ذلك تابع عمله وقدم نسخاً عن كتابه سنة ١٣٣٣م إلى بعض ملوك وحكام عصره^(٤).

وقد عُدَّ كتاب بيبر دويوا مرآة لعصره، وقيل إنه من الصعب الحديث عن تأثير كتاب دويوا على السياسة الفرنسية الرسمية، لأن دويوا عجز عن الدخول إلى دائرة المستشارين الملكيين، وعلى عكس دويوا أثر كتاب سانوتو على السياسة الأوزوبية والبابوية وعلى مشاريعهما الصليبية، وواضح بالنسبة لنا لدى تعاملنا مع أفكار دويوا أنه قد نهلها من مصادر عصره وسواه ولم يبتكرها، كذلك الأمر نجد أن سانوتو قد نهل من كتابات معاصريه، ولاسيما مما كتبه الراهب الفرنسيكاني فيدانزيو دي بادوفا Fidenzio de Padova الذي كتب عن تحرير الأرض المقدسة^(٥)...

هذا وقد تزوج سانوتو متأخراً، ورزق بولد واحد، كما أنه كتب رسائل أخرى مع بعض الكتب غير كتاب الأسرار، وجاء كتاب الأسرار بمثابة موسوعة كبيرة، ليس كل ما فيها عن الحروب الصليبية أو يهتمها بشكل مباشر، لذلك وقع الاختيار على النقاط الهامة المتصلة بالموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه ودراسته وتمحيصه^(٦)، ومن فضول القول، الحديث كثيراً عن أهمية محتويات كتاب سانوتو، ولعله يكفي القول إنه

كان يتوجب على العرب التعرف على هذا الكتاب ومضامينه منذ زمن طويل ونحن نرى فيه أسس المشروع الصهيوني الذي طُبِّق في مشرقنا العربي، كما نرى فيه نصلاً أخطر بكثير من "بروتوكولات حكماء صهيون" وربما نرى ما يجري فسي منطقتنا العربية من ممارسات، فيه خروج على المبادئ التي توخَّد العرب تؤهلهم للدخول إلى الألفية الثالثة بكل ما فيها من تحديات مصيرية تواجه مستقبل الأمة العربية ومصالحها وقضاياها العادلة وأكثر من هذا، ما يتصل بوجودها واستمرارها في أداء دورها الحضاري والإنساني.

رائناخذ ما كتبه سانوتو وما ذهب إليه وما هي الدوافع الحقيقية لقيامه بمثل هذا العمل الخطير وهو حلقة في سلسلة بدأت ولم تتوقف إلى يوم الناس هذا، يقول صاحب كتاب "الأسرار" في ٢٤ أيلول لعام ١٣٢١م، دخلت أنا مارينو سانوتو، الملقب بتورسبيللو، من البندقية، بنعمة غامرة إلى حضرة أبينا، قداسة البابا وقدمت له نسختين من كتاب حول استرداد الأرض المقدسة، والحفاظ على المؤمنين، بنسخة مغلقة باللون الأحمر، والثانية بصليب، وقدمت له أيضاً أربعة مصورات أرضية الأول عن البحر المتوسط، والثاني عن الأرض والبحر، والثالث عن الأرض المقدسة، والرابع عن أرض مصر، وكل ما كنت عازماً على قوله له، سلمته إياه مكتوباً كما هو وارد فيما يلي^(٧):

(وقبل الأب المقدس كل الذي ذكرته أمامه، بكل لطف وعرفان، وأمر أن تتلى عليه المقدمة، وجزء من المحتوى وبعضاً من النص بحضوري) ولم يكتف بهذا بل سألني عن عدد من القضايا واستوضح حولها، وقد أجبته عن كل ما سأل عنه، وفي الختام قال لي ما يلي: "أريد إخضاع هذا الكتاب للفحص" فأجبته بكل احترام: "هذا ما يطيب لي على أن يتسم الفاحصون بالأمانة"، فأجابني: "لا يساورك أدنى شك حول هذا الشأن"، وأضاف مطمئناً لي يقول: "يمكنك الذهاب حيثما ترغب"، وعندها غادرت، وتلطف بذاته فاستدعى بوانتيودي أست Boentiade Ast، وكان من رهينة الدومنيكان،

ونائباً أسقفياً في بلاد أرمينية، ويعقوب دي كامرينو Eacab de Camerino من رهبنة طائفة الفرنسيكان الملتحين، وكان عائداً للتو من زيارة لإخوانه في بلاد فارس، ومتمنى الفبرصي، وبولينو من التابعة البندقية، وكانا أيضاً من طائفة الرهبان الفرنسيكان وناولهم نسخة الكتاب المغلفة بشكل صليب وطلب القيام بتفحصه بكل دقة وأن يرفعوا تقريراً حوله، إليه. وانصرف الجميع نحو دراسة الكتاب بدقة وأمانة، وأكبسوا على عملهم في بيت بولينو Poulino وكتبوا تقريرهم ورفعوه بالإجماع وبعد مضي ثلاثين يوماً من تسلم البابا التقرير، وفي يوم السبت من بعد الظهر استدعى الرهبان المذكورين، ثم قابلني أنا أيضاً بترحاب، وسأل الرهبان المذكورين مراراً: "هل أنتم على رأي واحد بهذا الصدد؟"، فأجابوه باحترام: "بعم أيها الأب الأقدس، نحن على رأي واحد ومتفقين وقد كتبنا رأينا حول الموضوع"، وسألهم البابا عدة أسئلة أجابوه عليها، وأجبت أنا على بعضها، ثم أنهى الجلسة بقوله: "لقد تأخر الوقت، اتركوا تقريركم الخطي هنا، ولسوف نستدعيكم من بعد"، وهكذا غادرنا وبقي الكتاب عنده مع التقرير^(٨).

وأضاف مارينو سانوتو صاحب كتاب الأسرار^(٩)، الذي قال عنه إنه الموضوع المتعلق بشكل خاص بالصالح العام للمسيحية جميعاً في الماضي والحاضر، وأنا لست مدفوعاً من قبل أي ملك أو أمير أو جماعة أو محرّض من قبل أي شخص على الإطلاق، بل مدفوعاً بمحض إرادتي ورغبتني، وتقدّم إلى قداسة البابا بكل تواضع وتقوى، ذلك أن سانوتو بعد التأمل ملياً حول الخير العميم، وحول المحصلة التي من الممكن لقداسته تحقيقها بنفقة زهيدة، لا بل من دون أية نفقة أو إنفاق، والتمكّن من إذلال أعداء الإيمان المسيحي وإيادتهم، وبخاصة سلطان القاهرة، وأربك خان التتار المتحكمين بالبلاد الجنوبية، وهو الذي انتشر خبره لدى عدة شعوب على أنه قوي جداً، ومثله الترك الذي هاجموا بلاد الإمبراطورية البيزنطية حتى تخوم جزيرة المورة، التي هي تحت حكم اللاتين، يضاف إلى هذا أنه من الممكن مساندة

سلطان القاهرة، وخان الجنوب، وقد حدث فيما مضى أنه دافع بكامل قدرته عن مملكة أرمينية ضد المسلمين المعتدين.

ولقد استكم تقدير ضرورة إبادة الأمة الإسلامية، ومحو العقيدة التي نشرها محمد (ص)، ولتعلم قداستكم أن هذا أمر ممكن تحقيقه، حسبما سيتضح الأمر لكم من خلال ما جاء في كتابي، وسترون أنكم ستتمكنون -بعون الرب- بسهولة ويسر من احتلال أرض الميعاد المقدسة، ومعها باقي المناطق المجاورة^(١١)، وسيكون بإمكان قداستكم إعادة الإغريق وباقي الهراطقة إلى حضن الكنيسة الرومانية الأم، وأستطيع أنا أن أقول بكل تأكيد: لقد تشوقت نفسي إلى مثل هذا اليوم، اليوم الذي أجاب فيه إلى ما أنتظر، وأستطيع فيه المثل فيه أمام حضرتكم، لأهدي إليكم كتبي كلها.

وكننت في سبيل مشروعي هذا، قد عبرت البحر خمس مرات^(١٢)، حيث ذهبت إلى قبرص، وثانية إلى أرمينية، وثالثة إلى الاسكندرية، كما ذهبت إلى رودوس، وكننت قبل أن أقوم بهذا كله قد أقمت مدة طويلة في كل من الاسكندرية وعكا، وذلك دون خرق للحظر الذي فرضته الكنيسة، وقضيت على كل حال وقتاً طويلاً من أيام حيلتي في جزر بلاد الإغريق، ولهذا أعد نفسي مطلعاً بشكل جيد على أحوالها، ولا سيما على الأوضاع في إمارة المورة، وقدمت الآن حتى أضمن وضع هذه الكتب أمام قداستكم من البندقية عبر طريق البحر إلى بروغو Beugu، ثم أخذت طريقي براً إلى بلادكم، وكلّي أمل أن تنتظر قداستكم في أمر هذه الكتب، أو تتكرموا بتسليمها إلى من يتفحصها، كما يطيب لي راجياً من الخالق العلي، ومن علمكم الشائع، ومن لمن لطف قداستكم المعروف في كل مكان، أن تعلموا ما هو نافع وصالح في هذا المقام.

وقد تضمن الكتاب عدد كبير جداً من الفصول بأدق التفاصيل حول الأسباب المسوغة لتوجب يقظة الكنيسة، والطرق الواجب اتخاذها والوسائل المتوجب استخدامها

لاسترداد الأرض المقدسة^(١٢)، وأهمية وضرورة تنظيم الجيش المسيحي وحكامه، والأسرار التي يحملها الصليبيين الحقيقيين المعنيين بالسيطرة على المشرق وبلاد مصر والمغرب وسواها، وحول الألقاب التي تطلق على سلطان المسلمين، وكيفية الحفاظ على الأرض المقدسة بعد استردادها، وطرق إضعاف قدرة سلطان مصر، وكيفية محاربته بقطع خطوطه التجارية، ووصف بلاد مصر، والمناطق الخاضعة لنفوذه، وكيفية مراقبة البحر وحراسته، وكيفية تأهيل الجيش للحرب ومقدار التكليف، وتحديد الطرق التي يرى موائمتها لركوبها من قبل الجيش للوصول إلى مصر، وكيف يمكننا التعامل مع التحصينات وملحقاتها والاستيلاء عليها، وعملية بناء سور أمني في مصر البحرية والمزيد من تحصينها بحرياً للصدود في وجه الغالبين، والأفارقة والقبارصة وأتيل واللومبارد وسواهم، والاستعدادات التي يمكن للمسيحيين بوساطتها حماية أنفسهم في مصر ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة، وكيف يمكن للصليبيين زعزعة أركان مصر، وحول إمكانية مهاجمة السلطان من جهة النيل، ولشرح تساؤلات دقيقة ومحددة عما إذا كان عدد المراكب عند المسلمين على النيل يمكنها مقاومة جيش الصليبيين وإيجاد حل لهذه المشكلة وسواها، ثم البحث عن مصادر المؤن والدفاع وتجهيز سفن الجيش الصليبي، والحالة التي يفترض أن تكون عليه السفن كي تكون صالحة لعبور البحر وتحقيق مشروع مصر بنجاح، ثم الإيضاح بشكل لا يقبل الاحتمال والتأويل كيف أنه للإبحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر وكثرة المياه فيها، وحول المناطق والأماكن التي يمكن أن يتوفر بها ملاحون مهرة للملاحة في المياه العذبة مثلما في البحار، ثم حول التبشير من أجل حملة صليبية عامة وأنواع العساكر اللازمين لاحتلال مصر^(١٣)، ثم حول دور الصليبيين المأجورين من قبل الكنيسة الرومانية المقدسة، لدى نزول الجيش المسيحي على الشاطئ المصري، وحول ضرورة الاستيلاء على نهر النيل^(١٤)، وتبيان كيفية الاستيلاء على جزيرة رشيد، وكم ينبغي أن

يبلغ تعداد أولئك الصليبيين ، وفيه إيضاح على أن من المتوقع منطقياً اضطراب المسلمين إلى التخلي عن أرض مصر للمسيحيين، ثم أسئلة وأجوبة وتعليقات وتحليل حول الاعتراضات المثارة ضد قدرة المسيحيين، أي بمعنى هل يستطيعون بعد إخضاع أرض مصر مجابهة قوات السلطان، لا بل وقوات المسلمين جميعاً ومن ثم متابعة العمل للاستيلاء على أرض القدس وسورية وإيجاد الحلول للمشاكل الناجمة عن مجاورة القدس وسورية، ووسائل اكتساب صداقة التتار، وحول تبيان الأسباب التي جعلت أرض الميعاد المقدسة عرضة لهجمات جميع الأمم، ولماذا حدث لأهلها أن نكبوا مراراً، وطردوا من أرضهم، الإجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً^(١٥)، ثم أوضاع مملكة مصر والحج إلى الأماكن المقدسة (القدس، بيت لحم، الخليل) وسواها، ثم يوضع بشكل تفصيلي كيفية وجوب تطبيق الحظر بجديّة أكبر وفعالية أعظم في سبيل إضعاف قوى السلطان مع الشعب الخاضع له، بحيث لا يمكن لأي إنسان من الوصول إلى البلدان الخاضعة للسلطان، وما يسري على البحر يسري على أيضاً على البر، ويجري إزال أشد العقوبات بالذين يخالفون وكذلك الذين يتعاملون معهم، وخاصة في حقل التجارة، وأن تكون هذه العقوبات مثل التي تطبق ضد الهراطقة، وليكن على الجميع محرماً تحت طائلة العقوبة الماثلة، وتسلم بضائع واردة من إفريقية، لا بل حتى من إسبانية من المناطق المقطونة من قبل المسلمين، وكذلك أية سلع قادمة من الهند عبر المناطق الخاضعة للسلطان، وتوفرت لديه معلومات هامة جداً وتفصيلية عن مصر^(١٦)، وأقاليمها وتضاريسها البرية وخطوط تجارتها البحرية وسواها وعن إنتاجها وثرواتها على تعدد أنواعها والمواد التي تستوردها والتي تصنعها ويشرح كل هذه القضايا والأمور بشكل مسهب وواسع ودقيق بقصد الاستيلاء على مصر والتحكم فيها وإسقاط السلطنة والسيطرة أيضاً على ما حولها من مناطق وخطوط تجارة وبخاصة الجزء الجنوبي من بلاد الشام ونسوق مثلاً

لوضعه لبلاد مصر في جانب من أنشطتها وفعاليتها "لما كانت الأخشاب غير متوفرة في مصر وأيضاً لا يوجد فيها الحديد ولا القار، وهذه هي المواد التي تتحكم بتطور الملاحة البحرية وجودتها، وبما أن المسلمين لا يقدرّون على الحصول عليها إلا عبر البحر المتوسط، فإذا لم تكن لديهم سفن فمن الصعب إن لم يكن من الاستحالة أن تتمكن مصر من الصمود ولاسيما القاهرة، ومثلها في ذلك مثل المناطق المكتظة بالسكان في بلادهم.

ومردّ ذلك إلى أن القاهرة قائمة على ضفاف نهر النيل، والمسافة من القاهرة إلى البحر تبلغ قرابة المائة ميل، ونهر النيل^(١٧) يصب في البحر المتوسط، وله أربعة فروع، واسم الفرع الأول منها فرع "تنيس"، من جهة الصحراء، واسم الفرع الثاني فرع دمياط، واسم الفرع الثالث فرع البرلس، وأما الفرع الرابع فهو فرع رشيد، وفرع رشيد قريب من الاسكندرية وهو من جهتها، وبين هذه الفروع الأربعة اثنان أكبر حجماً وأهمية وهما فرعا دمياط والبرلس، ولأحد الفرعين الآخرين المسمى فروع تنيس حوض أعمق، وهو قادر على استقبال السفن الأكبر حجماً، والأكثر ثقلاً، حيث يوجد داخل الحوض بحيرة كبيرة وفسحة واسعة تسمح لعدد كبير من السفن أن ترسو فيها، والميناء موجود في المياه المالحة، وأما الفرع المدعو البرلس، فإن حوضه أقل عمقاً من الثلاثة الآخرين، ويستقبل سفناً أقل ضخامة، هذا وتستطيع الغلايين دخوله في موسم الفيضان، وبعده بمسافة وجيزة بحيرة ثانية، واحد من أجزائها تنارة عذباً وتارة أخرى مالحاً، ويبلغ داخل الزوايا الأربع لهذه الفروع نزولاً من الدلتا حتى البحر مائة وعشرين ميلاً وإذا ما سرنا من دمياط إلى الاسكندرية بمحاذاة البحر فالمسافة مائتي ميل، وإذا ما سائرنا مجرى النيل من القاهرة نحو الجنوب، يقال إن الذي تحت سيطرة السلطان يبلغ مسافة مائة ميل، وللنيل الواقع تحت حكم السلطان فروع عديدة، حولها بحيرات كثيرة، مستنقعات وتشعبات وأقنية كثيرة تجري في أرض مصر وتندفق فيها وتسقي الأراضي وتؤمن ربيها، وعلى ضفاف النيل وفوق مياهه عدد

كبير من المحطات، ولهذا السبب تنقل البضائع والأغذية، ومختلف أنواع البضائع والمنتجات على السفن، وحركة النقل والتجارة هذه نشطة جداً، هذا ويستوفي السلطان مكوساً على الأخشاب والحديد والقار التي تحملها السفن هنا وهناك ما يعادل ربع قيمتها، ولا شك أن هذا مبلغاً كبيراً، ويستوفي السلطان على كل مركب مبحر سواء أكان كبيراً أم صغيراً ثلاثة دنانير ذهبية، وهي تعادل ثلاثة فلورينات ذهبية ونصف فلورين.

ويتضح من هذا كم هو مهم عدد السفن التي تمر في موسم الفيضان عند حمل القمح إلى القاهرة، حينها تزداد حركة الملاحة على النيل وعلى بحيراته ذهاباً وإياباً، وإذا تأملنا حركة الملاحة وكثرة الرحلات نرى بالفعل ما يثير الدهشة، ويسكن في القاهرة مجموعات كبيرة من التجار والحرفيين، ويحكم في القلعة بالقاهرة السلطان ويقم بها مع قيادته وأعوانه وتمتد سلطته لتشمل مساحة قدرها نحو ألفي ميل، وأعداد المسلمين في مصر أعداد كبيرة، ويمكن أن نضم إليهم أعداد كبيرة أخرى من كثير من الشعوب وبما أن سلطة السلطان متمركزة في مكان واحد، فهو على ذلك السيد الوحيد الذي سيجزم أرض مصر كلها مع الصحراء والمناطق التي خلفها امتداداً إلى أرمينية والمياه الباردة المتاخمة للأراضي الخاضعة للمغول^(١٨)، وهكذا إذا ما حُرم المسلمون من القدرة على الملاحة، لن يعود بالإمكان نقل البضائع والمؤن والإمدادات لا إلى القاهرة ولا إلى القلعة، لأنه وقتذاك تصبح كلفة النقل أعلى من الثمن آخذين بعين الاعتبار أنه لا يمكن نقلها عن طريق البر، ولهذا إنه من المناسب أن يتشتت سكان القاهرة وجند القلعة، والشعب الموزع بينهم في جميع أرجاء مصر التي هي مناطق شاسعة واسعة^(١٩)، فإذا تشتتوا في أنحاء مصر يغدو من الطبيعي وقوعهم منطقياً تحت حكم سلطات متعددة مما يثير المنازعات بينهم، وحيث يستبد التشتت تسود التفرقة وقد كتب في الإنجيل: "كل أمة منقسمة على ذاتها تخرب"، وهكذا لم تتبدل نظرية الغزاة والمعتدين منذ قرون طويلة في سعيها المستمر لتمزيق أوصال الأمة من أجل سهولة

السيطرة عليها وهذا ناموس تعلمناه من التاريخ وعائشناه ولا زلنا "فما أقرب اليوم من الأمس"، بل "ما أشبه اليوم بالأمس البعيد والقريب" (٢٠).

ونشطت تجارة الرقيق الأبيض وتنوعت استخدامات هذا الرقيق في المجالات والأششطة المتعددة للمجتمع، سواء داخل المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان مباشرة، أو في الأقاليم المجاورة، أو المنقولين من مناطق بعيدة، ويحملون إلى البلاد المصرية^(٢١)، ويؤكد في أماكن متعددة من صفحات كتابه، إلى أنه ممنوع تمام المنع السفر إلى الأراضي التابعة للسلطان، وأن كل من يخالف هذا الحظر، خرقاً لأوامر سادتهم وجماعاتهم سينال العقاب، وسوف يلقي القبض على المسيحيين المخالفين، وعلى المسلمين غير الملتزمين بهذا المشروع المقدس، ورقتها فقط سيكون الذين أوكلت إليهم أمور الإشراف والرقابة على البحر على استعداد لتأدية مهامهم طواعية وعن طيبة خاطر، ومن ثم فرض الالتزام بهذا التبرير الصارم والمفيد، وعلينا على كل حال أن نتذكر أنه لما ضاعت سورية وعكا، أعلن رسمياً الحظر على الذين يذهبون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان أو الذين يعودون منها مجملين بالبضائع، وكان الحظر قد قضى بإعلان أن الذين يخالفون هم سفلة، ويعتدون محرومين من الوصية، أي أنهم لا يستطيعون كتابة وصاياهم، ولا وراثة ما ترك لهم من وصايا غيرهم، مع الإعلان أنهم غير مؤهلين للقيام بأي حصر إرث سواء أكان ذلك من جهة المعطي أو من جهة المستفيد ثم طردهم من جميع الوظائف العامة التي يشغلونها، ومنع منحهم أية وثيقة شرعية، وبشكل عام يتوجب مصادرة جميع ممتلكاتهم^(٢٢)، وإذا ما ألقى القبض عليهم يستوجب إبقائهم سجناء تحت حراسة الذين ألقوا القبض عليهم، ومع وجوب إغلاق الطرق في وجه البضائع التي اعتاد التجار على نقلها من الأراضي التابعة للسلطان عبر إفريقية كلها، ثم عبر الأندلس حيث يقيم المسلمون، وبالتالي من الموانئ إيقاف حركة نقل البضائع القادمة من الأراضي التابعة للسلطان، وكذلك من أراضي ملك تونس، وفي الأراضي الواقعة تحت سيطرة المسلمين في

الأندلس، وكل من يتجراً على تسلم أية بضائع أو أصناف نادرة أو منتجات قادمة من الهند، أو شرانق الحرير أو السكر أو الكتان، ينبغي إنزال العقوبات نفسها المقررة على من يتلقى بضائع واردة من أراضي السلطان وبلاده، وبذلك لن يتجرأ هؤلاء المسلمون المقاربة من الجنوب على ركوب طرق أراضي السلطان لكي يبتاعوا منها تلك الأصناف والبضائع، وهذا ما وقع في الماضي يوم كان تطبيق الحظر تطبيقاً شديداً وكان ذلك خلال شهر كانون الأول لعام ١٣٠٨م، وهو يتركز بشكل أساسي حول شؤون الأرض المقدسة^(٢٣)، وهو متمم لما ذهب إليه في كتابه الأول ومثبت له وداعم، موضحاً فيه الوسيلة والأسلوب لاسترداد الأرض المقدسة، وقد انتهى من تصنيف ما كتب في هذا الجزء الثاني في شهر كانون الأول لعام ١٣٢١م، في مدينة كلارنسيا Clarenisia^(٢٤).

ويؤكد صاحب الكتاب أن احتلال مصر^(٢٥)، سيجعل المسيحيين الموجودين في الشرق أكثر استعداداً للحرب والشعوب الأوروبية أعظم حماساً لتقديم المساعدة، عندما توضع أمامهم المرحلة الأساسية من المشروع، ألا وهي استرداد الأرض المقدسة ويعرفون أن المهمة المقدسة تتجزأ بوساطة رجال الحرب، ورجالة الجيش مع عدد لا بأس به من الفرسان، وبقدرة الذي يتم هذا العمل لمجده، وسينجز ذلك بنفقات أقل، وبضمانة أعظم، ومن الضرورة بمكان الاستفادة القصوى من دروس الماضي "فتاريخ الماضي أفضل معلم لصنع المستقبل".

ويؤكد سانوتو أن أرض مصر أسلم صحياً من أرض قبرص^(٢٦)، ومياها أفضل، وفيها كميات وافرة من الأسماك لتغذية الشعب، ويستبعد فكرة العبور البري إلى مصر من خلال إسبانية عبر مضيق جبل طارق إلى مدينة سبتة ومنها إلى تونس أو عبر أي جزء من بلاد المغرب ويجزم بأن هذه الطرق غير مناسبة وغير صالحة للسفر نحو الأرض المقدسة وبالتالي احتلالها، خصوصاً بسبب الصحارى الواقعة في وسطها،

ومن جانب آخر حدث أنه عندما أبحر الملك النبيل القديس لويس، ملك فرنسا، إلى تونس هو وابنه جين تريتان، مع نائب الكرسي الرسولي، ومعهم عدد كبير من الأمراء من مرتبة كونت وبارون، حدث أنهم وقعوا ضحية الوباء الذي أودى بعدد كبير من الشعب المسيحي، وكثرة هي الطرق التي جرى الكلام حولها من أجل استخدامها لمهاجمة الأعداء أعداء الإيمان الكاثوليكي، ولاسترداد الأرض المقدسة، والذي نراه هو: إن الطرق التي وضعناها هي الأفضل والأجدي لذلك قيدها وقارنت فيما بينها وبيّنت أن الطريق البحرية إلى مصر هي الأفضل، وغن كنت أدع دوماً لفطنة قداستكم تقرير اختيار الطريق، وكل ما قيل وسرد وعبر عنه برموز وأمثال دافعة وصادقة ومتشابهة تماماً، من شأنه حملنا على إظهار الحقيقة التالية التي لا جدال فيها أبداً: إن الطريق البحرية إلى مصر هي بكل تأكيد أفضل الطرق جميعاً وهو الباب الصالح الذي ينبغي الدخول منه لإبادة ملة محمد (ص)، بادئين ذي بدء بقطع الدرب والمنبع الذي تصل منه الموارد المالية باستمرار وذلك عن طريق ملاحقة المخالفين وتسليح الغلايين وغير ذلك^(٢٧)... وقد عني بالقلعة المحصنة أرض مصر التي ظلت منذ أمد بعيد الحصن الحصين في المشرق للذين يتبعون ملة محمد (ص) وفصدت الدهاليز والستائر الرملية الصحراء الشرقية التي تحيط بأرض مصر من جهات مملكة القدس وسورية، ومثلها الصحراء الغربية من جانب إفريقية، والتي لها تخوم مشتركة مع مملكة تونس، ومن ثم الصحراء الكبرى، أما الأسوار العالية والأبراج الكبيرة والستائر التي حولها، ففيها إشارة إلى تلك الصحراء الواسعة وإلى أن عبورها يوازي بمشقة تسلق تلك الأسوار والأبراج وهو عبور مرهق، وصعب وشاق جداً، وهكذا الحال بالنسبة لعبور الصحراء الممتدة على مسافات طويلة، وأن سلوك تلك المعابر مرهق وخطير جداً بالنسبة لأي جيش كان وعالي التكاليف، أما الخنادق ونقاط الدفاع في تلك الأرض، فمن الممكر تسميتها قلاع سورية وتركية، المشحونة بعناصر جيدة من الرجال هم أمهر من الذين في مصر، أما أسوار القلعة المذكورة

والمشرفة على الخنادق ونقاط الدفاع، فالمقصود بها صحراء مصر التي ضمنت دوماً في الماضي أمن القلعة وسلامة حاميتها، وقد سيطرت هذه الحامية في الماضي وما تزال تسيطر اليوم على خنادق ونقاط دفاع هي حصون مملكة القدس وسورية، فهذا ما اتضح من خلال حملات الفرنجة الذين قدموا في الماضي إلى مملكة القدس وسورية، ويتجلى هذا بشكل أبين مما جرى للتتار، والمقصود بالعبارات والجسور التي تربط بين الخنادق والأبراج، الطرق والمسالك التي تربط ما بين الصحراء وبين مملكة القدس وسورية، وعلى هذه الطرق اختزن المصريون بيرة كمية كافية من الماء، اعتادوا الاحتفاظ بها لحاجتهم فقط عندما يضطرون إلى عبور تلك الصحراء، وعندما يريد السكان إخفاء تلك المياه أو إتلافها حتى لا يكشفها الأجانب والغرباء، يفعلون ذلك كلما أرادوا، ومن الواضح أنه يتعذر على أي إنسان عبور تلك الفيافي مع جيشه دون ماء وهذا ما دفع سانوتو إلى تسمية تلك المعابر بالأبواب الحديدية، وباب القلعة الكبير يبقى دوماً مفتوحاً فهو بمثابة مصر البحرية الذي تصل عبره إلى المصريين جميع الحاجيات المناسبة وخاصة الضرائب والرسوم والبضائع التي يرسلها الأمراء والأعيان والعساكر من جميع بلدان العالم وشعوبه، ولاسيما أصحاب الثروات الذين يأتون بالشكل والأسلوب المناسبين، وأهم البضائع والمنتجات التي تدفع تلك الضرائب من قبل اتباع الكنيسة الرومانية المقدسة إلى السلطان: الفضة وألواح القصدير، والرصاص والزيت، والأعلاف، وشقق الصوف والحريز وأقمشة الكتان، والمرجان، وأتواب المنسوجات، والزعفران وغير ذلك من البضائع، والمصريون يستخدمون هذه السلع وهي عندهم بوفرة، أما الفائض فإنها تنقل إلى الهند، حيث يتاجر بها المصريون^(٢٨)، ويشتررون التوابل وأنواعاً من الأصناف النادرة، ويعودون بها إلى أرض مصر للمتاجرة بها، ويتضح بشكل جلي أن الفضة وسواها من المواد المتقدم ذكرها تستبدل بغيرها، أي بمعنى آخر أن تلك المعادن وسواها تسمح للمصريين بالحصول على التوابل والأصناف الهندية الأخرى مقايضة، ومن ثم شحن إلى قلعة

المصريين المذكورة، وللحصول عليها يسافر التجار إلى هناك حاملين معهم من بلدان الشمال -عبر البحر الكبير- الغلمان والجواري الذي يسميهم المصريون المماليك، فضلاً عن هذا يحمل التجار معهم من البلدان المذكورة ولا سيما من جزر اليونان وبلاد الصقلية [السلاف]: الخشب والحديد، والقار ويعبرون بهذه البضائع البحر، ويقايضون بها في القلعة المذكورة، أي أصناف نادرة من الهند، وهذا مما يصنعه التجار، ذلك أنهم يحملون بشكل كبير أكثر من سواها الغلمان والجواري إلى أرض مصر، وغالباً ما يأخذونهم من أرض اليونان^(٢٩)، وبات الآن واضحاً أكثر من ذي قبل، أن الفضة والقسم الكبير من البضائع التي يصدرها المؤمنون الساكنون في الغرب تطلب يومياً في مصر، لأنها تتحول لصالح تجارة المماليك المربعة، ذلك أن المماليك عبارة عن جواري وغلمان من أصل مسيحي أو وثني، ومثلها تجارة الخشب والحديد والقار، وهي البضائع التي تصدر بشكل دائم إلى ذلك الحصن الذي هو أرض مصر، ولأجل ذلك كله تتضح صوابية لأي الذين أشاروا بحظر وصول الذهب والفضة والنحاس والقصدير والمرجان إلى أرض مصر، ذلك أنه من المؤكد أن هذه السلع سوف تنتقل إلى المقاطعات المصرية، دون الاكتراث بالحظر الصادر عن الكنيسة الرومانية المقدسة، وبرأي سانوتو أنه بسبب حاجة مصر للسلع التي تأتي من مصر، فإنها تنتظرها دوماً، ويقوم السلطان والخاضعون له باستمرار بأخذ قسم كبير منها، مما هو لازم لقوتهم وطياتهم، وبدون الاتجار بها لا يمكنهم الحصول على التوابل ولا غير التوابل من الأصناف النادرة، وغير ذلك من بضائع الهند وكذلك لن يمكنهم الحصول على المماليك والحديد والأخشاب والقار، وإذا حصلوا على ذلك، يكون ذلك دون الكميات المرغوبة، وبناء عليه أن الذي يتأمل بالطريقة الموائمة حتى يمنع ويحول دون نقل المماليك والحديد والأخشاب والقار إلى هناك عليه أولاً أن يحظر شحن الذهب والفضة وصفائح القصدير والنحاس والزعفران والمرجان وما

شابه ذلك إلى مصر. لأن أهل مصر يبادلون هذه البضائع بالسلع والأصناف والمنتجات الهندية.

وشبهه صاحب كتاب الأسرار سانوتو ملة محمد (ص) بالشجرة وتوابعها^(٣٠)، وهي العقيدة التي نشرها في أيامه. ويراد بها أيضا شعبه والبلدان التابعة لهم وهذه العقيدة هي الجذور والأساس الذي تغلغل في أرض مصر وترسخ فيها. وأما أغصان تلك الشجرة. فهي البلدان والقادة التي يحكمونها خاصة في تركية وسورية وأرض الميعاد كما يتوهمون. لا بل في بلاد المغرب في مملكة تونس. وعلى طول شاطئ إفريقيا كلها، وفي سائر بلدان العالم التي تدين بعقيدة محمد (ص) وتخضع لشريعته أما أوراق تلك الشجرة، فهي شعوب تلك البلدان الساكنة فيها^(٣١). وضخامة الشجرة وقدمها هي تجذر المصريين وقوتهم. فمصر ظلت دوما هي الأقوى بين جميع اتباع تلك العقيدة. وخاصة في الشرق. أما الينابيع التي تروي الشجرة وتغذي جذورها وفروعها. فهي بدون شك المنتجات والثمار التي تستخرج من أرض مصر. أما النهر الذي يروي تلك الشجرة. ويجعلها موئلا للجميع فهو المعبر الذي تنقل الخيرات بكثرة خلاله إلى السكان وسواهم. مما يجعلهم اليوم يمتلكون جميع الأصناف النادرة. وبضائع الهند، التي لولاها لما كان بإمكان السكان المقيمين في مصر تأمين سبل عيشهم أو تنظيم شؤون حياتهم واستهدف سانوتو صاحب كتاب الأسرار القول: إن الشجرة لا تعطي أية ثمار. تبيان أنه لا يمكن أن يقطف من عقيدة محمد (ص) أية ثمار صالحة أو ينتج أي عمل صالح. المقصود مدى الحقد والكراهية مما يحمل سانوتو تجاه العقيدة الإسلامية. أما الثمار الجيدة حسب رأيه التي تثبت تحت الشجرة فهي الثمار التي تنتجها البلدان التابعة للسلطان والخاضعة لسيطرته، والبضائع التي تنزل في هذه البلدان يوميا، ذلك أن هذه البضائع بحد ذاتها صالحة. أما الذين ينتقلون وعبونهم مغمضة، ويقعون في الظلمات الدامسة، فهم بدون شك الذين يعطلون بصائرهم وأبصارهم عن رؤية أوامر الحرمان والعقوبات التي فرضتها كنيسة يسوع المسيح...

أما المؤمنين الذين يختلفون عنهم تماماً فإنهم يفكرون ليلاً نهاراً حول كيفية إزالة تلك الشجرة أي عقيدة محمد (ص)، واسترداد مملكة القدس وانتزاعها بشدة من أيدي أولئك الأشرار^(٢٢)، ويوضح بشكل دقيق وتفصيلي ما تحتاجه الحملة لاحتلال مصر من رجالة وفرسان وسواهم وأشار إلى أن الإبحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة، ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر وكثرة المياه فيها، ويفضل ذلك بقوله من حيث المبدأ على الذي يريد الذهاب إلى الشواطئ المصرية سواء من الغرب أو من الجزر اليونانية عليه أن يرسو في جزيرة كريت، طبعاً عند رأسها الشرقي، وهناك يُعطى شارة الصليب المميزة لكي يقلع نحو مصر عندما تكون الرياح شمالية وشرقية.

وبسبب التيارات التي تتدافع من الشرق نحو الغرب في تلك المناطق، يلزم هناك التوجه إلى وسط مجرى الرياح، والسير بوضع مقدمة السفينة باتجاه الشرق مقدار الربع من الرياح الشرقية، وبعد ذلك من وسط مجرى الرياح حتى الاسكندرية مع الرياح بخط مستقيم^(٢٣)، ويقدر هذا العبور مع مجرى الرياح بأربعمائة وخمسين ميلاً، هناك من يؤكد أن هذا العبور مع مجرى الرياح يبلغ خمسمائة ميل، وبما أن جزيرة كريت تتمتع بمناخ جيد، لكن كثيراً ما يتفاجأ الذين يعبرون من هناك بحراً أنهم كلما اقتربوا من مصر أن المناخ يتحسن ويتبدل ويغدو صافياً نقياً، تبدو زرقة السماء، علماً بأن مصر البحرية تسقط فيها الأمطار باعتدال كبير، لكن بكفاية وكلمة مضيت داخل مصر نحو القاهرة والقلعة وما وراءها نحو الصعيد، هناك لا تسقط الأمطار إلا بالنادر، وإذا سقطت لا تكاد تبلل تلك الأرض وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بكل تأكيد أن مناخ مصر، بسبب هذه المواصفات هو مناخ جيد، لا بل ممتاز، ويمكن البرهنة على هذا من خلال الأعلاف، فإنها إذا ما حملت إلى مصر، وقد أصيبت بالعفونة، أو بدأت تتلف، تصح وتستعيد جودتها، نتيجة جودة ذاك الهواء، وجدير بالتنويه أن المياه غزيرة بمصر، وهي من أفضل مياه العالم، وخير ما فيها أنها خفيفة تساعد على الهضم، ولذلك لا يجوز مطلقاً التراجع عن هذا المشروع، بل يلزم إنجاز كل ما يمكن عمله حتى تتحقق

آمال الجميع ممن يسعون في سبيل مجد الرب وكنيسته، ولكي يتمتعوا بتلك الأرض بسلام وأمن... ويتحدث سانوتو^(٣٤)، بإفاضة ودقة عن روائع طواقم الغلايين والفرسان وخدمهم وكذلك النساء اللواتي يرافقن أزواجهن في احتلال مصر ورماة القسي والمجذفين والملاحين والنجارين والطباخين وعمال الطلاء والمعجونة بالإضافة إلى مستشارين ومفتشين ومشرفين وأطباء وجراحين، وحجارين وصانعي نشاب وموسيقيين ينفخون بالأبواق ويقرعون على الطبول ويضربون على النقارات ويحسون استخدام سائر الآلات الموسيقية الناعمة مثل الرباب والقيثارة والكمنجة الكبيرة وسواها بقدر ما يُرى أن في ذلك فائدة الجيش... وعن الأسلحة وأنواعها وطريقة صناعتها وتطويرها.

ثم يضيف سانوتو المناطق البحرية الخاضعة للسلطان وأسماء الشواطئ والمراسي البحرية والجزر، والفوارق بين مكان وآخر، مع وصف للشواطئ التونسية التي هي امتداد بحري لها.. من مرعش إلى الاسكندرونة إلى ارسوز إلى رأس الخنزير إلى مصب نهر العاصي في السويدية ومن مصب العاصي بمحاذاة جبل اللكام حتى برج إسلام ثم رأس البسيط إلى اللاذقية حيث برج أوغاريت عند المدخل الجنوبي للميناء إلى مصب نهر السن ثم بانياس وحصن المرقب ومن المرقب إلى طرطوس وجزيرة أرواد ومن هناك إلى طرابلس ثم رأس شقعة فالبترون فجبيل إلى بيروت فصيدا فصرفند ثم صور ثم البياضية فالناقورة فعكا ومن جبل الكرمل حتى عثليت إلى قيسارية إلى أرسوف إلى يافا ومن جبل الكرمل حتى دمياط لا يوجد عند الشاطئ أي جبل وكلها أرض منبسطة فيها صخور رملية بيضاء^(٣٥)، أما في داخل البلاد صعوداً من الشاطئ فهناك جبال اسمها جبال القدس، ومن الممكن رؤية هذه الجبال حتى جبل الكرمل على سلسلتين.. ثم الشواطئ البحرية الممتدة من يافا إلى دمياط والشواطئ البحرية الممتدة من دمياط إلى الاسكندرية، والمسافة من الفرما إلى الاسكندرية هي مائتين وثمانية وستين ميلاً، وهذا هو عرض المنطقة الساحلية من مصر، لكن مملكة

مصر تمتد حتى ميناء السلطان^(٣٦)، وهو ميناء يقع بعيداً عن الاسكندرية ويبعد عنها سبعين ميلاً باتجاه الغرب، والمسافة من الاسكندرية إلى القسطنطينية هي مائتين وثلاثين ميلاً وذلك عبر نهر النيل، والمسافة من الفرما، عبر تبتيس ودمياط إلى القسطنطينية هي مائتي ميل فقط وذلك على سطح نهر النيل، ومن القسطنطينية إلى أسوان التي هي أقصى جزء من مصر باتجاه الجنوب واتجاه الحبشة هي مائة وأربعين ميلاً إلى غير ذلك من تحديد للمسافات والمواقع باتجاهاتها المتعددة - وإذا ما مضينا صعوداً فوق النيل من دمياط نصل أولاً إلى بدالة ثم إلى المنصورة حيث ينقسم النيل^(٣٧)، والفرع الأصغر هو الذي يجري إلى الفرما، لكن المكان الذي ينقسم فيه النيل انقساماته الرئيسية، ويجعل من الجزء الأكبر من مصر جزيرة، يدعى باسم الدلتا، وذلك لأن شكل الجزيرة شكل مثلث، وهو مثل حرف دلتا ويجري الفرع الأكبر نحو الاسكندرية والفرع الأصغر نحو دمياط، ومن الدلتا إلى عين شمس ثلاثة أميال، ويجري فرع أنيل من هنا باتجاه الشمال نحو مدينة بلبس، ويجري من هناك خلال القفار نحو الأرض المقدسة، ويدخل البحر قرب مدينة العريش، وهي على مسافة يوم من غزة وبير السبع وهذا ربما الذي ورد ذكره في العهد القديم باسم "وادي مصر" [الملوك الأول: ٦٥/٨. الملوك الثاني: ٧/٢٤]، لكن لا يمكن الملاحة به، وعين شمس بلدة جميلة جداً، غير أنها ليست محصنة ومثلها كذلك جميع بلدان مصر الأخرى باستثناء الاسكندرية والقاهرة، وعلى مسافة سبعة فراسخ من عين شمس تقوم مدينة القسطنطينية وهي مدينة محصنة بشكل جيد وعظيمة وتقوم على الضفة الشمالية لنهر النيل، هذا يجري وسط المدينة فرع كبير من ذلك النهر، وكذلك وسط مدينة القاهرة التي هي مرتبطة بالقسطنطينية، وفي القاهرة يعود هذا الفرع إلى مجرى النهر الأساسي ثانية، ويوجد إلى جانب القاهرة شجر نخيل قديم جداً، و(راس نباس) الميناء الرئيسي لمصر على البحر الأحمر، لأنه بالنسبة للذين يرغبون بالإبحار نحو الهند، ونحو الجنوب الغربي، ونحو الشمال، هناك قفار واسعة تمتد حتى الأرض المقدسة، ولا يستطيعه

الإنسان عبور هذا القفار إلى سورية بأقل من ثمانية أيام، وعلى هذا نجد مملكة مصر محاطة من كل جانب -باستثناء ساحل البحر- بالرمال والقفار، والمناخ في مصر صحي، والطعام جيد، والأرض أكثر اعتدالاً منها في فلسطين أو سورية، مع أنه من حلال وضعها قد يخيل للإنسان أنه سوف يجد العكس. ويتطرق سانوتو إلى كيفية توضع الجيش وإقامة المعسكر والمخيم وتوزيع المقاتلين والخطط الموائمة لطبيعة الأرض والمناخ، ويؤكد على ضرورة أن يكون المعسكر على مقربة من مكان آمن حيث تتوفر كمية من الأخشاب والعلف والماء، ولهذا عندما خدع الخونة إمبراطور ألمانيا ومعه ملك فرنسا وملك القدس أثناء حصار دمشق، فبدلوا موقعهم المناسب بموقع آخر لا ماء فيه، دحروا وتخلوا عن حصارهم لدمشق، وبالطريقة نفسها هزم صلاح الدين غي لوزغان وأسر^(٢٨)، وإذا كانت الإقامة ستطول يتوجب اختيار المكان الصالح، والمناخ الجيد، لنصب المعسكر، كذلك ينبغي تجنب أن يكون هناك جبل قريب ولا بأس أن يكون المكان مرتفعاً حتى لا يسهل على العدو احتلاله، ومن غير المناسب أيضاً أن تكون هناك كثرة من سواقي المياه، فإن أهل دمشق قد دحروا التتار بسبب ذلك، كذلك ينبغي تجنب حصر الجيش الكبير في مكان ضيق أو زج الجيش الصغير في مكان ممتد أكثر من اللازم، ويجب نصب المعسكر حسب المعطيات والظروف، بحيث يكون أحياناً مربعاً وأحياناً مثلثاً على شكل نصف دائرة، وذلك حسبما يقتضي وضع المكان آخر ما هنالك من شروح وتفاصيل ودقائق وسوى ذلك.. ويصف توضع الجيش في مواقعه وكذلك مواقع الجيش الإسلامي.

فيؤكد أن المسلمين ينصبون معسكراتهم حسب نظام دقيق، حيث يضعون في الوسط سراق السلطان. ومن حوله الإشراف والرجالات الأشداء حيث يكون تعدادهم حوالي الألفين، ويدعى هؤلاء باسم الحلقة السلطانية، ثم يوزعون ما تبقى ويرتبونه حسب تلك الدائرة، وهم يتبعون هذه الطريقة وينفذونها جميعاً، وهي مناسبة، ذلك أن كل مسلم يعرف في أي دائرة هو. وفي أي دائرة ينبغي أن يكون، ومكان خيمته بالتمام

والكمال، ثم يسوق سانوتو توضيحات وأمثلة تدل على خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى خوض المعركة وحول مواصفات المكان الموائم لخوض المعركة وكذلك الاحتياجات الواجب اتخاذها لدى قيادة الجيش لخوض المعركة، ثم الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لهزم جيش العدو، وكذلك الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لإعادة تنظيم الجيش في حالة إصابته باننكاسة وما شابه ذلك.

وتخلص من كل ذلك إلى القول إن الكتاب أشبه بموسوعة أهم ما فيه المخطط الذي وضعه المؤلف سانوتو للسيطرة على مصر^(٣٤)، وبعد السيطرة إفراغها من السكان أو إفراغ المناطق الساحلية منها وتحويلها إلى بلد أوروبي/ لاتيني، فيما رواء البحار، قم إن المؤلف امتلك معلومات جيدة ودقيقة وتفصيلية عن وضع مصر وعن جغرافيتها ومسافاتها وإمكانياتها الاقتصادية والعسكرية ثم أراد الوصول إلى نتيجة مفادها أن إسقاط مصر يؤدي إلى السيطرة على الأرض المقدسة، وذكر أيضاً بأن أهم عوامل الازدهار الاقتصادي والإمكانيات المادية لمصر متوفرة بالتجارة الهندية وبالمنتجات المصرية، فالتوابل وسواها كانت تجلب من الهند إلى عدن وتحمل من ثم إلى مصر لتُصدّر مجدداً بعد تصنيعها إلى أوروبا وهذا يُزيث في القوة الاقتصادية لمصر ولسلطاتها... وبناءً على هذا وغيره، اقترح حصار بحري على الموانئ بوساطة أسطول كبير وحوالي ١٥٠٠٠ من الرجال و ٣٠٠ من الفرسان، وعندما تقوم هذه القوات بالحصار تقوم بالإنزال على أرض مصر وتحتل دمياط وترحف حتى القاهرة وإلى أن يتحقق هذا المشروع تحويل الطرق التجارية بحيث تحمل البضائع من عدن إلى العراق، ومن العراق إلى كليكية فأوروبا، وكانت بلاد العراق خاضعة لحكم المغول، وكليكية تحت سيطرة الأرمن، ولهذا اقترح المؤلف سانوتو إنشاء تحالف ما بين أوروبا الغربية والمغول، وبالوقت نفسه إرسال نجدات إلى كليكية لحمايتها من جيش المماليك خاصة من بيبرس النبدقداري، والمثير للانتباه أن سانوتو قدم دراسة لنفقات الحملة وإلى كل ما كانت تحتاجه من مؤن وسلاح وعتاد وأموال... إلخ. وألح

على ضرورة أن يرافق المبشرون الحملة لتحريك عواطف وحماسة الجند الفرنسي والقيام بتحويل سكان مصر إلى الكاثوليكية^(٤٠).

"كتاب الأسرار لسانوتو" مفيد جداً في دراسة الأوضاع الاقتصادية والنشاط التجاري في أيامه كما أنه مفيد من الجوانب التقنية والعسكرية والجغرافية.

ويمثل ما امتلكته أوروبا من معلومات عن مصر والمشرق العربي، كما أنه اهتم بضرورة طرد العرب من الأندلس أو تحويلهم إلى الكاثوليكية.. ولعل هذا وغيره يفسر لنا الحملات الاستعمارية الأوروبية على الوطن العربي في مشرقه ومغربه في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وكذلك اتفاقيات سايكس بيكو ١٩١٦م، ووعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وقرارات سان ريمو ١٩٢٠م. بل أكثر من ذلك فيه الكثير من الدلالات حول ما يجري في أيامنا في الوطن العربي وحوله ودور إسرائيل المركزي في تنفيذ ما عجزت عنه أوروبا عن تنفيذه قبل بضعة قرون أهو تبدل بالاستراتيجية أم بالرؤيا أم أنه المزيج بين الاستراتيجية والتكتيك...

الهوامش

- (١) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو - الصادر ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية- دمشق ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، الجزء السادس والثلاثون - تأليف وتحقيق وترجمة د. سهيل زكار، ص ٧.
- (٢) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٨.
- (٣) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٩.
- (٤) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٠.
- (٥) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١١.
- (٦) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٢.
- (٧) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٣.
- (٨) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٤.
- (٩) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٥.
- (١٠) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٦.
- (١١) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٢٢.
- (١٢) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٣١، ص ٥٦.
- (١٣) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٧٠-٧٤.
- (١٤) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٨٤-٨٩.
- (١٥) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٠٧-١٢٤.
- (١٦) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٣٧-١٤٥.
- (١٧) كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٣١٥-٣٧٤.
- (١٨) عبارات لها علاقة وثيقة جداً بالأحداث التي تشابهت في تاريخنا العربي عبر العصور التاريخية القديمة والوسطى والحديثة والمعاصرة) المشاريع الاستعمارية

الأوروبية (اليونان والرومان) + المماليك - السلاجقة - المغول - العثمانيون - وغيرهم. ثم المشروع الصهيوني، ص ٢٠-٤٠. القسم الرابع من كتاب الأسوار لسانوتو ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثها في حال نشوب المعارك وما يتعلق بها. وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقدسة. وفيه ايضاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض. وفيه تسع وعشرين فصلا تحمل عدد من العناوين والشروح التفصيلية والتي تستهدف أولا وأخيرا تسهيل مهمة السيطرة على هذه المنطقة الهامة من العالم، ص ١:٦، ص ٢٤٥.

(١٩) كتاب الأسرار في فصوله وأقسامه كما وردت تبحث أيضا في استكمال الخطة الشاملة للسيطرة على سورية (بلاد الشام) والقدس والخليل ومجاري المياه والأنهار في الأرض المقدسة، وعكا والناصرية، وبيت لحم، وسواها، ويحدد سانوتو في كتابه الأسرار أن أرض الميعاد المقدسة موجودة في سورية التي تحتوي جميع البلاد من الدجلة حتى مصر، ويحدها من الشرق نهر الدجلة، ومن الجنوب الخليج العربي، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الشمال أرمينية وكيدوكية، وهذه البلاد التي اسمها العام، هو سورية، مقسمة إلى عدة أجزاء أصغر أولها، سورية الأولى، وهي قائمة ما بين الدجلة والفرات، وهي تمتد طويلا نحو الشمال ونحو الجنوب، أي أن نقول من جبال طوروس حتى الخليج العربي، وهي تعرف أيضا باسم سورية الجزرية، ومن أجل عرض حولها انظر القسم الخامس - الفصل الأول، وفيها تقع الرها، التي دعى فيها توبييت باسم راجس Rages وتعرف بشكل عام باسم "الرسا" Resse، وهي واقعة على مسافة أربع عشرة فرسخا فيما وراء الفرات، بين جبال طوروس وجبال القوقاز Caucas، ومن أجل عرض حولها - انظر القسم الخامس - الفصل الثاني، وقد اتخذ هذا القسم الشمالي لنفسه اسم المنطقة كلها، وصار يعرف بشكل دقيق باسم

سورية الجزرية، وفي هذه المنطقة أيضاً نينوى وبابل، وزيادة على هذا، سورية هذه مقسمة إلى مقاطعات هي: ميديا وأكاد وفارس كما هو واضح على المصور (أورده سانونو في كتابه). أما سورية الثانية، فتعرف باسم سورية المجوفة "البقاع" وهي ممتدة من جبال طوروس حتى نهر أينا الذي يدخل البحر عند مدينة بانياس أمام قلعة المرقب، وأنطاكية هي المدينة الرئيسية في سورية هذه. وتدعى سورية الثالثة باسم "فينيقية" وهي تبدأ عند نهر بانياس الأنف الذكر، وتمتد جنوباً حتى خربة دستري، التي تعرف باسم دستر كتوم Districtum تحت جبل "كامل"، وهي تعرف الآن باسم قلعة الحجاج (عثليت) وتمتد نحو الشرق حتى مدخل حماة، وبناء عليه أنها تحتوي على كفرنغوم (كفرلام)، والمرقب وطرطوس ومدن أخرى، والمدينة الرئيسية فيها هي صور.

وتدعى سورية الرابعة باسم "سورية دمشق" لأن المدينة الرئيسية فيها هي دمشق، وتدعى أيضاً باسم سورية ولبنان، لأنه يوجد فيها جبل لبنان المشهور، كما أنها تدعى بالغالب ببساطة باسم "سورية" كما يقول إشعيا: "رأس سورية (أرم) دمشق لإراشعيا ٨/٧" فضلاً عن هذا تدعى ثلاثة أجزاء من فلسطين بالسورية وبناء عليه إن الجزء الخامس من سورية هو فلسطين، وهو يدعى بشكل صحيح باسم الفلسطيني، والمدينة الرئيسية في هذا القسم قيسارية، وهو يبدأ عند قلعة الحجاج [عثليت] ويمتد نحو الجنوب مماثلياً لساحل البحر المتوسط حتى غزة.

وسورية السادسة هي فلسطين الثانية، والتي المدينة الرئيسية فيها هي القدس، وهي تحتوي جميع المنطقة الهضبية حتى البحر الميت، وإلى قفار قاديش - بارينا Barea وبشكل دقيق تعرف هذه المنطقة باسم اليهودية، وهو اسم جزء أطلق على الجميع (كما يظن ويعتقد ويتوهم صاحب كتاب الأسرار).

وسورية السابعة هي الجزء الآخر من فلسطين، والمدينة الرئيسية فيه هي مدينة بيسان، عند سفح جبل جليوع، قرب الأردن، ويضم هذا الجزء الخليل وسهل جزريزل

الكبير، ومثل هذا تدعى الأجزاء الثلاثة من العربية باسم سورية، وبناء عليه هنا سورية الثامنة، التي هي المدينة الرئيسية فيها هي بصرى، وهي تعرف الآن باسم بصريث، وفي قديم العصور باسم برسا، ويحدها منطقة الطرخونية الإبطورية في الغرب، وتمتد حدودها في الشمال تقريباً إلى دمشق، ونظراً لقرب هذا الجزء من العربية من دمشق، فقط دعي في بعض الأحيان باسم سورية الدمشقية، ولهذا السبب عرف أرتاس [أرتاس الأول- المشابيون ٢/٥/٨] باسم ملك العربية في حين أنه كان في الواقع ملك دمشق.

وسورية التاسعة هي منطقة العربية، التي هي المدينة الرئيسية فيها هي البتراء وهي قد عرفت بالقديم باسم النبطية، وأر، وأريوبولس، وهي قائمة عند بركة أرنون، وعند حدود المشابية والعمورية، وهي قد احتوت مملكة صهيون ملك هشيون، ومملكة عوج ملك باسان، وجبل جلعاد، وتتصل في الجنوب بالعربية الأولى.

وسورية العاشرة هي التي في العربية، ومدينتها الرئيسية هي (مونريال) التي تعرف الآن باسم الكرك وقد عرفت هذه في الأيام الخوالي باسم البتراء في القفار، وهي قائمة فيما وراء البحر الميت، ولها السلطان فوق أراضي مآب، التي قد تعرف أحياناً باسم سورية سوبال Sobal، وتحتوي في داخلها على جميع منطقة أروم، التي هي جبل سعير مع جميع الأراضي حول البحر الميت، حتى قاديش - بارينا، وإلى عزبون - جابر، ومياه الصراع على الطريق الناهب إلى البحر الأحمر، وعبر القفار الشاسعة حتى إلى الفرات، وهذه هي العربية الكبيرة والأولى وتعرف أيضاً بالعربية الأرومية أي المقدسة ففيها توجد مدينة مكة وهي المدينة التي يُعبد فيها محمد (ص) كتاب الأسرار لسانوتو من ص ٢٥٣-٣١٤.

الهوامش

- (١) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية - تأليف وتحقيق وترجمة د. سهيل زكار - الجزء ٣٦، ص ٧.
- (٢) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية - مشاريع ما بعد الحملة الصليبية - تأليف وتحقيق وتقديم أ. د. سهيل زكار - ط دمشق، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩، ص ٤، ٣٤٤٥.
- (٣) الموسوعة الشامية، ص ٨ / ٣٤٤٦.
- (٤) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٨.
- (٥) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٩.
- (٦) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٠.
- (٧) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١١.
- (٨) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٢.
- (٩) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٣.
- (١٠) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٤.
- (١١) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٥.
- (١٢) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٥-١٦.
- (١٣) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٣١-٥٦.
- (١٤) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٧٠-٧٤.

- (١٥) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٨٤-٨٩.
- (١٦) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٠٧-١٢٤.
- (١٧) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٣٧-١٤٥.
- (١٨) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٣١٥-٣٧٤.
- (١٩) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٠٧-١٢٤.
- (٢٠) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٣٧-١٤٥.
- (٢١) عبارات بها علاقة وثيقة جداً بالأحداث التي تشابهت في تاريخنا عبر العصور التاريخية (القديمة والوسطى والحديثة والمعاصرة) المشاريع الاستعمارية الأوروبية (اليونان والرومان) + المماليك - الغز - السلاجقة - المغول - العثمانيون - وغيرهم، ثم المشروع الصهيوني.
- (٢٢) ، (٢٣) (٢٤)، (٢٥)، (٢٦)، (٢٧)، (٢٨)، (٢٩)، (٣٠)، (٣١)، (٣٢)، (٣٣)، (٣٤)، (٣٥)، (٣٦)، (٣٧)، (٣٨)، (٣٩)، (٤٠).
- القسم الرابع من كتاب الأسرار لسانوتو ويدور حول الخطّة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثها في حال نشوب المعارك وما يتعلق بها، وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقدسة، وفيه إيضاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض، وفيه تسع وعشرين فصلاً تحمل عدد من العناوين والشروح التفصيلية والتي تستهدف أولاً وأخيراً تسهيل مهمة السيطرة على هذه المنطقة الهامة من العالم.

(٤١) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ١٤٦-٢٤٥.

(٤٢) الموسوعة الشامية، كتاب الأسرار لمارينو سانوتو، ص ٢٥٣-٣١٤.